الهوية.. وفخ الصورة

الدكتورة: نعيمة سعدية
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر – بسكرة

قبل البدء:

عندما تعصف زلازل الفخ بقلاع الهوية، عندما تنفجر المعاني غضبا وقهرا، فتطير الحقيقة كالشظايا. عندما يطلب العقل الأجوبة فترتد الأسئلة إلى بداياتها وعندما وعندما ... يجب على المثقف دق طبول الخطر والفزع، لتتزاوج الفكرة والعبرة، والرغبة والرهبة، والحلم والعمل،والحقيقة والمعرفة؛ إذ بات معروفا "أن المعرفة التي هي خلاصة الممارسات العقلية للإنسان تتشكل ضمن أطر ثقافية وحضارية محددة، وتدخل في علاقة حوار ومثاقفة مع أطر ثقافية وحضارية أخرى"[(1)].

لتحاول بذلك هذه الدراسة بحث حيثيات تحول الصورة إلى فخ يقع فيه فعل الترويج للهوية، لتصبح الهوية هويات، بل في الصورة الهوية ونقيضها.

أولا. مفاهيم أساسية:

1–في مفهوم الهوية :

الهوية (IDENTITY) "عملية تمييز الفرد لنفسه وتحديد حالته الشخصية[(2)]. وتساعد هذه العملية بما يميزها من سمات(اسم، جنسية، سن، حالة، مهنة...الخ) " الفرد في تسهيل معاملاته المختلفة مع الجهات التي تطالب بإثبات شخصيته.. ومبدأ الهوية المقصود به أن الموجود هو ذاته أو هو ما هو[(3)]، فلا نخلط بين الأمور أو بين الشيء وما عداه وأن لا نضيف للشيء ما ليس له.

ولكن، مصطلح الهوية لا يكتفي بكل ما هو ذاتي فحسب، وإنما يتجاوز حدوده إلى صفات تخص الجماعة؛ لأنه منظومة متماسكة من السمات المشتركة بين أعضاء الجماعة تميّزها وتجعلها تعتّز بذاتها[(4)].؛ فهي بذلك:"مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحدّ الأدنى المشترك بين جميع الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون عمن سواهم من الأمم"[(5)]، كونها" تتضمن عددا كبيرا من السمات المعنوية والمادية المرتبطة في

نظام واحد، وبقاء هذه الصفات أو زوالها، وإعطاء هذه الصفات أحكام قيّمة موضوعية لصراع حضاري ولظواهر اجتماعية وثقافية ونفسية"[6].

ليمكننا القول أخيرا أن "الهوية وحدة جماعة بشرية ما– كائنة ما كانت تناقضاتها أي تعددها– كما تتجلى في الخصوصيات، أي التجانس المتميز كما تصنعه الجغرافيا والتاريخ وكما تعبر عنه التطلعات الأصلية والأساسية لدى الإنسان"[7].

إذن تحديد مفهوم للهوية أمر صعب ومعقد صرح به الباحث في اللسانيات الاجتماعية نورمان فار كلوف (N.Faire clough) :" تحديد الهوية أمر معقد، أحد تعقيداته هي أنه لابد من التمييز بين الجوانب الشخصية والجوانب الاجتماعية للهوية: الهوية الشخصية والهوية الاجتماعية "[8].

من حيث إنها الانعكاس المنسجم المتجانس لقيم الجماعة: آرائها– مواقفها– سلوكياتها– توجهاتها الفكرية– والنفسية– فلسفتها في الحياة وكل ما يتصل بالوعي الجماعي، لنكون بذلك أمام:

1– هوية اجتماعية، يسعى الفرد من خلالها إلى تعزيز الانتماء بمجتمعه.

2– هوية وطنية: يعزز الفرد بها روابط الولاء للنظام والتراب.

3– هوية ثقافية: يعزز بها قوة الانتماء إلى ثقافة ما مكتسبة.

إنّ الحفاظ على الهوية الثقافية متصل بتوفير الشروط الفكرية العلمية الاقتصادية وحتى السياسية اللازمة.

الهوية ليست حالة من التملك، أو هبة تعطى، ولكنها صناعة وبناء يتشكل ويتطور كلما دعت الضرورة إلى ذلك، فهي المنجز البشري الذي يكتسب قوته وفاعليته من خلال نوعية الجهد الإنساني[9]، في ضبط الخصائص الحضارية التي ابتدعتها المجموعة البشرية من : لغة ودين وقيم ومهارات وفلسفة، لذلك اعتبر مفهوم الهوية موضوع جدل في أدبيات الفكر والثقافة.

ويتفاعل مصطلح الهوية مع مصطلح العولمة في علاقات جدل وتجاذب؛ فالعولمة تطارد الهوية وتلاحقها وتحاصرها وتجهز عليها، وفي دائرة هذه المطاردة تعاند الهوية أسباب الذوبان متشبثة بحق الوجود والديمومة.

ذلك" أن أكثر الاختراقات الغربية خطورة على الإطلاق هي محاولة طمس الهوية الثقافية للعرب والمسلمين وتحطيم منظومتهم الحضارية ومحو ذاكرتهم الجماعية،..يلجأ الغرب في

ذلك إلى تفكيك البنى الثقافية وتشويه القيم الدينية للعرب والمسلمين والنفاد إلى معاييرهم الأخلاقية وخصوصياتهم المحلية وفلسفاتهم الحياتية بالوهم والتشويه" [10] والسخرية والاستهزاء، والعجب أن من يساهم في ذلك عنصرا مساعدا ثلة من المجموعة محسوبا عليها. وإزاء كل هذا يمكن تحديد ثلاث هويات متمركزة في الذات:

1- الهوية الموروثة : ذات جذور اجتماعية فكرية دينية محددة (كينونة).

2- الهوية المكتسبة: اكتساب مهارات تحفظ بها مبدأ الاستمرارية (التفاعل).

3- الهوية المرجوة والموعودة: جملة التفاعلات لمظاهر الكينونة في الهوية، وهي غير مكتملة (حركة توليد الفوارق في الهوية). إن الهوية بذلك حالة وجودية ومعطى حضاري للفرد في الجماعة.

من أسباب زعزعة الهوية في أنفسنا امتلاك الفرد للثقافة السطحية والتبعية وأحيانا التقليد الأعمى للآخر حتى في جلد ذاته وهويته، زيادة على نمطية التعامل وخضوعه لمبدأ الازدواجية والعولمة.

وعليه، يجب أن لا نبحث عن فكر وتراث وهوية بديلة فذلك يؤدي إلى التباين، بل يجب بحث كيفية تطوير هويتنا، كونها حركة ونشاطا فعالان؛ تقوي مكامن القوة في معالم الهوية التي تميز الحضور الإنساني في هذا الوجود الكوني بكل خصوصياته الحضارية والثقافية والفكرية وغيرها.

2. في مفهوم الصورة:

الصورة رسالة إعلامية فكرية تمر على شبكة العلاقات الاجتماعية لتصل إلى ذهن الفرد وعواطفه وبنيته النفسية، في سبيل أن يكون مدركا مقتنعا بنمط العلاقات الاجتماعية، وواعيا بالمداخل والمخارج لهذه العلاقات، فاستجابة الناس لها مرتبطة بإدراكهم لنمط علاقاتهم الاجتماعية؛ لما لها من أهمية، كونها أبلغ لغة تعبيرية عن موضوعها لما لها من قوة تأثير، وقدرة على فرض نفسها على الجميع؛ بل إنها محاولة لدفع المرء على الإحساس بأمر أو الاعتقاد بفكرة أو تغيير سلوك يجب أن تعتمد ابتداء على توفير المعلومات الكافية حول ذلك.

ورائي الصورة الجزائرية لا يستطيع الانفلات من استحضار حقيقة وجود الفاعل والمؤثر والطاغي، فالفاعل جزائري، والمؤثر في الفاعل جزائري، والطاغي جزائري، يلوح بأيادي

متنوعة عديدة للهوية الجزائرية، والتساؤل هل الصورة تقول كل شيء عن الهوية؟ ؟! أم أنها تقول ما لا تعرفه الهوية؟

هل الصورة تبوح بكل حقائق الهوية؟ أم أنها في كثير من الأحيان هي العامل الذي يصنع الهوية المضادة؟ ليتولد في ذهننا تساؤل جديد: ونحن نشاهد الصورة ترى عماذا نبحث: هل نبحث عن ذواتنا الضائعة أم أننا نبحث عن الهوية الحلم؟ ما الذي نحاول فهمه فيها الهوية المشوهة أم نبحث لنجمل ونصنع هوية الفردوس المفقود؟

كون الصورة رسالة تفاعلية تقر بأمور لا توجد في الهوية الحقيقية، بعد أن حوت معاني القول والدلالة الثبوتية، التي تؤهلها للدخول إلى معبد "الهوية"؛ لتبتعد الصورة –بذلك– عن الهوية الجزائرية على يد فئة نخبوية منتمية إلى اللسان الفرنسي، لأنها مثقفة ثقافة غربية منبهرة بهذه الثقافة وبمدنيتها، وفي هذا تنكر لمعالم الهوية وإدخال للذات في صراع داخلي بين إضعاف للانتماء وتقوية الصلة بالآخر، بين إلغاء للهوية الأصل والترويج للهوية المصطنعة.

ذلك أن الصورة بما تملك من سحر وجاذبية تنطق بكل شيء، الأمر وضده، الهوية واللا.هوية، الحقيقية اللا.حقيقة، أي المعنى واللا.معنى.

ثانيا. الصورة ومبدأ الترويج للهوية:

1–الهوية والصورة الكاريكاتورية: على مستوى هذا النوع من الصور يتزاوج النسق اللساني مع النسق الإيقوني ليصنعا لنا الهوية المتخيلة والمتحققة في ذات الوقت.

فما هي الفائدة التي يمكن أن يجنيها الفكر من متخيل الصورة ليساهم في إعادة بناء الهوية على أسس أمتن؟

فالجزائري من خلال الصور أعلاه شخص سلبي يرفض مواجهة الذات، مصاب بداء القلق والاندفاع، لا يحترم المشاعر غير عاطفي، وهي صور قليلة في هذا المجتمع الثوري الأبي، لأن الجزائري شخص يحترم ذاته، وعروبته ومشاعر إخوته، له قوة نخوة بكل ما يحيط به، أما القلق فهو شعور طبيعي يعمد الجزائري خاص والعربي عامة إلى إظهاره للإنقاص من حدة توتره، أو لاسكات الطرف الآخر المحاور له؛ فهوى الاندفاع يعتبر طريقة في الفعل، ويشمل على « فائض جيهي» (يجمع بين إرادة الفعل والقدرة على الفعل (يمكن من توقع الإرادة والقدرة والمرور إلى الفعل)، وفي هذه الحالة تكون الذات منفصلة عن موضوعها (جهة : معرفة عدم الكينونة)، ومتشككة من النجاح في مهمتها(القدرة على عدم الكينونة) ومصرة، في الآن نفسه، على إدراك مبتغاها(إرادة الكينونة). وعلى الرغم من غياب إرادة الفعل بسبب المعوقات فإن العنيد لا يتخلى عن برنامجه (مشروع الفعل المحتمل).

وعليه، فا"الأنا" كوعي بالذات الجماعية يقتضي عمومية الاسم على خلاف "الأنا" الفردية التي تتطلب تميزه واختلافه؛ ذلك أن "الأنا" الكبرى المشتركة هي أنا الشعور بالانتماء إلى مجتمع له مميزاته، وهو ما يعبر عنه بمفهوم الهوية[11]؛ والأنا بوصفها وعيا بالذات الجماعية هو وعي بالآخر، ذلك أن الانتماء إلى جماعة محددة هو وعي بالاختلاف.

إن الأمر يتعلق إذن بفائض جيهي هو الضامن لمواصلة الإنجاز. "وحضور هذا الفائض هو ما يفرض علينا صياغة هوية من خلال حدود" تنظيم جيهي للكينونة" لا من خلال حدود «أهلية في أفق الفعل.

من خلال هذا المثال تتضح بعض المفارقات: تخرج « إرادة الفعل» عن « عدم القدرة على الفعل»، وتزداد قوة داخل تنظيم جيهي للكينونة. وهو ما يقتضي الافتراض بوجود تركيبتين يهم أحدهما التركيب الجيهي للفعل، ويخص ثانيهما التركيب الجيهي. وفي حال هوى « العناد» تكون « أهلية الفعل» مجرد صورة افتراضية « لأن العنيد يريد أن يكون، داخل ما سميناه التصاور الهووي للعناد، « ذاك الذي يفعل»، وهو ما لا يعادل «يريد أن يفعل»[12].

إننا إذن أمام التفاعل الآتي:

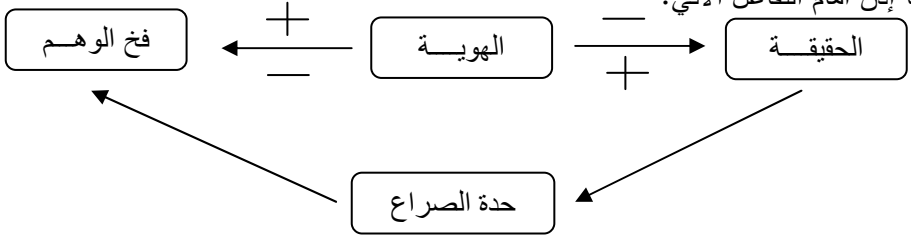

« يتموقع الناس لا إراديا كفاعلين أوّلين بحسب الحال الذي يولدون عليه، ولا خيار لهم في ذلك ابتداء... قليلون في المجتمعات المعاصرة يبقون ضمن حدود هذه المواقع، لكن قدرتهم على تغييرها مرتبط بقدرتهم على التفاعل والتحول إلى فاعلين متعاونين قادرين على الفعل الجماعي وبلورة التغيير الاجتماعي»[13].

إذ يتطلب تحقيق الهوية الاجتماعية القدرة على تولي الأدوار الاجتماعية، من حيث تشخيصها، أي توظيفها في شخصية المرء الخاصة(الهوية الشخصية) وتنفيذها بطريقة مميزة.

يصبح المرء شخصية عندما يستطيع صياغة اهتماماته الأولية وتحديد أهدافه النهائية، ويتمكن من إقامة توازن بين أدواره الاجتماعية وترتيبها وفق الأولوية بالاستناد إلى تلك الاهتمامات والأهداف، وهذه السيرورة في حد ذاتها مقيدة اجتماعيا، أ ي أنّ الهوية الاجتماعية تقيّد الهوية الشخصية، وهذا جزء من العلاقة المنطقية الجدلية بينهما[14].

وتمتلك الجزائر أنا يميزها، تعج بأشكال من الأنا[15] تتمثل في بقايا العصبيات القديمة كالعروشية والقبلية واللغوية، وهي كثيرا ما تدخل في علاقة تنافس وتنافر، وهذه الأشكال من الأنا تحول دون دخول الجزائر عصر الحداثة في وجود ذات مواطنة منتمية تعي واجباتها وحقوقها، ولعل المرجع الديني هو المكون الهوياتي الوحيد المشترك بين الجزائريين، وهذا ما يبرز في الصور التالية:

هي صور أخرى تظهر الجزائري في قوة الاندفاع والنشغال بأمور حياتية يحياها أي شخص ولكن هذه الصور أرادت منه شخصا لا.مبال مندفع يريد أن يفعل ولا يقدر، ومنه يجب القول « إذا كانت الدعوة إلى العقل تتيح الصمود في وجه عُصبوية ونزعة بيئية مغاليتين، فإنها تتيح أكثر ارتباط الذات الفاعلة –الحرية والذات الفاعلة– الجماعة المنصهرة، التي هي أيضا

ذات فاعلة واعية بانتمائها لوسط طبيعي[3]» فالعقلانية أساس لروح الحرية ضد إكراهات الجماعة المنصهرة العصبوية .

والدفاع المنطقي العقلاني ضد كل هذه الأمور يتحقق من الرأي الذي تفوق معرفته العلمية مستوى أكثر من المتوسط، يعغمل على ترويج الهوية بكل زواياها الموروثة والمكتسبة والمرجوة. ولكن تتعمق هوة الهوية الجزائرية في الصور الآتية:

إن كلمة جزائري، في هذه الصور، هي تسمية مشتركة تدل على الأنا الجماعي، تقوم الأنا الجماعية "جزائري" على مرجعين: المرجع الديني المتمثل في الإسلام، والمرجع العصبي القبلي، الذي يعتبره ابن خلدون أساس التجمعات البشرية في مجتمعات المغرب العربي.

ففي الصورة الأولى، نقول: إن الكون الهووي للفرد يعبر عن خصوصيته، ويجلي" أسطورته الشخصية" فيما يخص تثمين أهواء أو بخسها.؛ فالإرادة هي أساس مأساة الإنسان، لأنه عندما تكون الرغبة غير مشبعة ينتج عنها الضجر والازدراء، فيتولد الإحباط والعذاب. وهكذا

فعادة ما ترتبط الإرادة باللا.معنى والعبث والتناحر. « إن هذه التغييرات في المواقع تقتضي منهجا ممكنا لدراسة العلاقات بين النص والنص المحيط والسياق[16].

ولقد تبلورت إشكالية ثقافية نابعة من الممارسة اللغوية المزدوجة بعد الاستقلال، فقد تم استثناء المكون الأمازيغي للشخصية الجزائرية مما أدى إلى الحيلولة دون قدرة الأنا الرسمية على أن تجمع حولها الأنا الاجتماعية الجزائرية؛ الأمر الذي أوجد صراعا محتدما بين الذات الأمازيغية –كجزء جزائري– والأنا الجماعية ببعدها العربي.

فكانت صور الأعياد شكلا من أشكال استدعاء الأخر، قصد ممارسة وظيفة الدمج وتحقيق التعايش في ظل هذه الازدواجية، لذلك يرى عمر أرجان في الهوية الجزائرية انعكاسا مقلوبا لهوية الأخر، أي الاستعمار[17].

والملاحظ لهذه الصور يجد توظيف عناصر الهوية الجزائرية ضد بعضها البعض، بحيث صار الجزائري

يبدو للجزائري في صورة الأخر، ناهيك عن الآخر الفعلي(العربي/الغربي).

ولعل هذا ما دفع آلان تورين إلى القول بأن «الذين يحسون أنفسهم مجتّاحين بثقافة أو مصالح اقتصادية قادمة من الخارج، يتجمدون في الدفاع عن هوية منقولة يحسون أنهم يمتلكونها بدل أن يخلقونها، ولكن هذا التأكيد على الهوية مصطنع[1]».

إن تحديد الهوية في الصورة كخطاب معقد متشابك هو في آن معا مسألة فردية وجماعية، عدد من الـ "أنا" و/ أو الـ "نحن" الممكنة، فالأنا التي ترسم وتثير معان تختلف عن الأنا التي تصور، والتي توجه الأنظار إلى معنى معين وهكذا ؛ فما يجب أن يفعله الفرد هو الانطلاق من نقاط القوة عنده، وبناء هويته بما يتلاءم مع موقعه المتخذ بشكل منسجم ومكتمل بشكل يصل به إلى الآخر.

رائي هذه الصور سيصله انطباع أن الجزائري كسول متخاذل حتى وهو يحلم بالمهن والقضايا المصيرية التي تتحكم بأرواح الناس، إذ يمكن بلوغها بالنوم والاتكال على الآخر القوي، وأنه يمتهن بعض الأشغال الخاصة بلا رخصة في الشارع، وهي ظواهر لا يكاد ينعم منها مجتمع في العالم، وأنه شخص لا يبالي بقضايا مجتمعه متملص من كل مسؤولياته، فينعدم هنا شرط التداول اللغوي؛ كون "الدفاع عن تقليد ثقافي بعيد جدا عن تأكيد الهوية لذا يتحدد إلا بالتعارض مع تهديد أجنبي وبالوفاء لتنظيم اجتماعي[4] ".

إن المعرفة الضرورية لإنجاز بعض الأفعال، والمواقف المهمة لتنظيم هذه الأفعال وتأويل الواقع الاجتماعي ستتشكل قبل المعرفة والمواقف، التي ليس لها بعد اجتماعي"[18]، كأفعال ترسيخ الهوية؛ فلكل فئة مجتمعية مشاركة مجموعة محددة نسبيا من الأفعال اللغوية المحتملة، بالنظر إلى مقام نمطي ، ويستحسن أن تكون أفعال الهوية منسجمة مع الفكر التأويلي الذي يكونه الشخص عن نفسه وعن علاقاته مع مجموعته الاجتماعية.

إن السياق المعرفي للصورة عمل على تحديد ذاكرتها، واستراتيجياتها وغير ذلك من الأمور، التي تفهم منها، ويعاد إنتاجها من خلالها؛ ذلك أن الاستعداد المعرفي لمستقبلي الصورة: من رأي ومصلحة ومهام ورغبات وغير ذلك من مكوناته المعرفية الثقافية، يمارس تأثيرا نافذا في عملية فهم الصورة ومعالجتها، كون تحريك المعرفة والرأي والموقف والسلوك إزاء مثل هذا النوع من الخطابات يعمل على رسم هوية قد لا تكون حقيقية، إذا لم توضع في سياقاتها المحددة.

2-الهوية والصورة الضوئية:

الصورة وخاصة الصورة الضوئية ثقافة ونشاط أشمل يمارسه الفرد لإيصال فكرة عن هويته في سلوك وأسلوب ونمط شخوصه المنتخبة؛ نعمد كمتلق إلى تفكيك رموزها وتميزها وتفسيرها ونختار في ذلك ما يتفق مع ثقافتنا، والحاجات التي نريد إشباعها. كما يعمد الآخر إلى تكييف رموزها مع حاجاته، ومع ما يتفق من معتقداته.

تظهر هذه الصور هوية موروثة لا علاقة لها بالهوية المكتبة أو المرجوة ولا حتى المتحققة فعلا، لأن من يأتي إلى الجزائر فسيجد المظاهر التي تفعلها هذه الصور هي مظاهر يندر وجودها في المجتمع الجزائري، لأنها تعبر فقط عن الموروث لا تطور فيها ولا تطوير، فلقد أنتجت النخبة المثقفة تنظيرا خاصا ضيقا في قضايا الهوية الجزائرية لتكوينها الثقافي المتميز عامة عن ثقافة الشعب أي أنها أنتجت تصورات على مقاسها الخاص في مجال الهوية[19]، ما يسمى الهوية النخبوية، وهي ضيقة تفرز تهميشا وإقصاء وتوترا في الأنا الجماعية؛ كونها لم تعتبر الشعب في يوم من الأيام مصدرا لتنظيراتها عن الهوية، الأمر الذي جعل البعض يعتقد أن الشعب الجزائري لا يملك هوية اجتماعية مشتركة، بل هويات متعددة (تبرز في مطالبة الجزائري بأن يعترف بالجزائري كآخر، فهل يعقل هذا؟ ! ومنه: من هو الجزائري إذن؟.

"إن الثقافة تؤدي وظيفة حيوية في تشكيل السلوك البشري.. وأنها تتحكم في الأنماط السلوكية المنبثقة عن الشخصية"[20] وهي الخلفية الفكرية والمعرفية والاعتقادية للسلوك.

وعلى حدّ تعبير صلاح فضل:" نسمي ثقافة تلك العناصر التي ترقى من مستوى القوة إلى مستوى الفعل، من الكمون إلى الظهور، أي تلك التي تمارس فعاليتها في السلوك، وتطبع تصرفاتنا بطابعها وتتحكم في كيفية رؤيتنا للظواهر وشعورنا بها، تلك التي توجه مواقفنا وتؤلف المزيج الخاص الموظف لتكوين نظرتنا للكون والحياة"[3].

تلك هي العناصر التي من المفروض أن يتولى المبدعون بلورتها وتجسيدها في أصفى أشكالها وأقواها تعبيرا عن ضمير الجماعة/ عن الهوية الجماعية، ولكن قد تسلك هذه العملية أحد السبيلين[21]:

1- أن تعمد إلى تكريس منظومة القيم القارة، وتأكيد آليتها، وضرورة الاستجابة النمطية لها في حالة قصور عن التكيف مع المعطيات الجديدة، والتطور والتجدد والتحضر، وهذا تصور غالبا ما يرضي أصحاب السلطة السياسية والإيديولوجية المسيطرة، كونه لا يمثل خطرا عليهم، إنه تصور مشوه فاقد للطابع الثقافي الصافي.

2- أن يعمد الإبداع إلى أداء وظيفته في البلورة الحقيقية للوعي الجماعي في تطلعاته وأشواقه ومشروعاته المستقبلية البنّاءة، فيعيد ترتيب العناصر الفاعلة في اللوحة الآنية كي تنتج غدا أفضل، لا ذلك الغد المستنسخ من اليوم؛ أي هوية حقيقية للجماعة تكون قد تخلصت من شوائب الهوية النخبوية المشوهة اللا.حقيقية، وغير طائعة لمنطق الهوية الأصل.

العامل الثقافي عنصر أساس في تحديد الهوية الاجتماعية والوطنية، واللغة أهم عنصر من عناصر الثقافة و"الثقافة هي اللغة"، فثقافة أي مجتمع مرتبطة ارتباطا وثيقا بنمط اللغة والأسلوب المتبع فيها.

علينا أن نتصور الثقافة في لحظة ممارسة التراث الكامن لتأثيره على الوعي من خلال الفعل المحدد؛ ذلك أن الثقافة" هي ذلك الكل المعقد الذي يشمل المعرفة والمعتقدات، والفنون، والقانون، والأخلاق، والعادات والعرف، وكافة المقدّرات والأشياء الأخرى التي تؤدّى من جانب الإنسان باعتباره عضوا في المجتمع"[22]؛ فهي فعل اجتماعي يقوم به الإنسان ويشمل كل نشاط يقوم به، أو يتأثر به من خلال احتكاكه بالمجتمع وتواصله معه.

يقول شيالديني « إننا جميعا نخدع أنفسنا من وقت لآخر حتى تظل أفكارنا ومعتقداتنا مطردة مع ما سبق أن فعلناه أو قرّرناه»[23]، فالوعي النقدي بالحياة عنصر أساس من عناصر الهوية بل هو الموجه لحركتها، والفاعل في تكوين بنيويتها، وتغيبه هو تغيب للهوية الأصل؛ ذلك أن " الوسيلة الوحيدة للعلم بظاهرة ما، والسيطرة عليها هي رؤيتها في تولّدها وتحركها، واختيار إمكانات التدخل في مسارها[24]".

ويقول أيضا « إن ضغوط الاطراد تعتصر الصورة عن الذات من الجانبين، فيكون هناك ضغط من الداخل لجعل الصورة عن الذات مسايرة للفعل، ويكون هناك ضغط أخبث من الخارج، وهو النزعة لتكييف هذه الصورة تبعا للطريقة التي يدركنا بها الآخرون، ولما كان الآخرون يروننا على أننا نعتقد فيما قد كتبناه (حتى ولو كان بسيطا) فإننا سنعاني مرة ثانية من جذب حتى تساير صورتنا الإقرار المكتوب» [25].

والحقيقية أن الصورة تظهر الهويتان من حيث لا ندري، ذلك أن تحديد الهوية من خلالها ليس مجرد سيرورة خطابية، ولا مسألة تشكيلية (إيقونية/لغوية) ليتحقق الرأي القائل أن هوية الذوات هي نتيجة خطاب، بل هي مشيّدة في الخطاب؛ باعتبار هذا الأخير مكونا ثقافيا متغيرا من مكونات التفاعل الاجتماعي، فإنه يمثل في حد ذاته ظاهرة ثقافية يمكن أن تستخرج منها بعض الخلاصات التي تهم البنية الاجتماعية للمجموعات الثقافية"[26].

لتدخل الذات في صراع مستمر؛ في البحث عن سيرورات تحدد هويتها، وبخاصة في تشكيل "الوعي الذاتي"، فعلى هذه الذات أن تعي حقيقتها، قدرتها، موقعها؛ فهوية الشخص هي في نهاية الأمر هوية للمجتمع بأكمله. تخضع الصورة من حيث منطق السيطرة على الهوية بمختلف أنواعها إلى علاقات معينة(بين ذوات المجتمع):

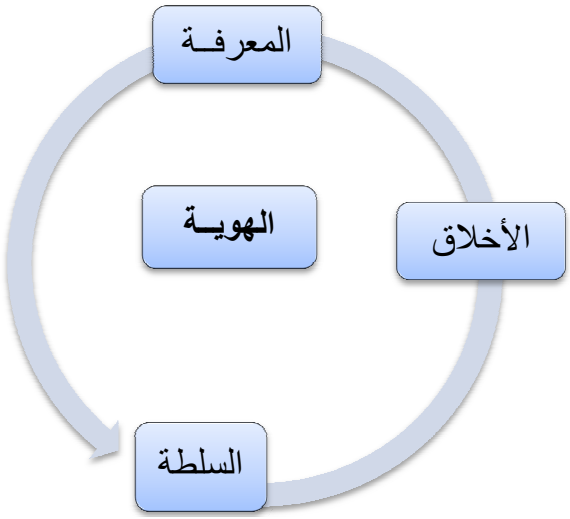

لنتساءل: كيف نتشكل كمواضيع لمعرفتنا؟ كيف نكون ذواتا أخلاقية تتبع من أفعالنا وممارساتنا؟ أي كيف نكون ذواتا أخلاقية تعرف وتخضع لعلاقات سلطوية فيما بينها؟

لتظهر الصور استعداد الذوات المجسمة والذوات المشاركة لرؤية الأمور والتعرف بطرق معينة استنادا إلى انخراطهم في المجتمع وتجربتهم، وانخراط الذوات الأخرى في سبيل تحديد الهوية، ورسم معالمها، خاصة وأنّها ذوات دخلت في علاقات سلطوية بعضها ببعض.

إن الصورة الضوئية باتت تعادل قوة الكلمة وسلطتها، في الترويج للهوية: وعليه نتساءل هل تصور لنا الهوية أم أنها تسلب منها الروح، وتمنحها المعنى المضاد، على الرغم من أنها أهم وسائل الإيضاح، والعنصر الأساس في استجلاء عمق الظاهرة، إذ يجد الرائي معاني كثيرة في كل هذه الصور، تسهم جميعها في تحديد الهوية بنوعيها: الشخصية والاجتماعية. وهو الأمر الواضح في الصورة الأولى أين نجد الهوية الموروثة تسيطر على الهوية الراهنة المكتسبة منها والمرجوة، في حين كان على راسم اللوحة تطويرها وتقديمها بشكل يقربها للمشاهد، وذات الأمر نجده في الصورة الثانية والتي يظهر فيها الجزائري شخصا حافيا برفقة حمار وهي صورة في اعتقادنا بعيدة جدا عما هو موجود، وزائر الجزائر سيدرك ذلك حالما يحل ضيفا سائحا عليها، وفي الصورة الثالثة يجد رائي الصورة "الجزائر"

ممثلة في علمها تحمل معاني الظلام والعتمة والاختباء واللا.وضوح؛ فإمكانية وصف سيرورة تقود بين أبسط الأشكال الوجودية للقيم وأكثرها تجريدية إلى مستويات تتميز ببعد تشخيصي مرئي ومتحقق في فعل إنساني مدرج ضمن وضعيات تستوعب هذه القيم وتمنحها وجودا مخصوصا ولقد أطلق على هذه السيرورة المسار التوليدي وهذا المسار دال في الوقت ذاته على ترتيب خطي موجه نحو غاية، ويتحقق من خلال خطاطة سردية وعلى دينامية داخلية تحدد النص (الواقعة) باعتبار تفاعل مستوياته لا باعتبار المضامين الدلالية التي يحملها؛ فالبنيات الأولية لا تتحدد من حيث وجهها الحقيقي إلا من خلال تجسدها [27].

إذن، تنطوي سيرورة تحديد الهوية على نتائج مرتبطة بتشكيل الصورة كخطاب، إذ يجب اعتبارها سيرورة منطقية جدلية يتم من خلالها ترسيخ ضروب خطاب الهوية؛ لأن "الإنسان لا يملك هويته الإنسانية إلا إذا أحس بالمساواة مع غيره المختلف عنه بدوره"[28].

كما أن الصور المنتقاة قد شكلت مرجعيات مختلفة للهوية الجزائرية المشوهة، على الرغم من أنها كانت من الواجب عليها الخروج من " فكر نقدي" يعمل على تفكيك التراث، وتحريك الراهن فيها؛ إذ كان على الصور الاندماج في الحلم أو المشروع الحي كما يعيشه الناس الخاصة والعامة، لا فقط كما تعيشه الخاصة. كما كان يجب التأصيل الفكري داخل واقع الصورة لينبع من باطنه وتزول عنه تهم الدخيل والاستلاب.

وأخيرا، إذا أردنا تأسيس هوية جزائرية حية بدل الهوية النخبوية الصورية، التي تثيرها بعض الإبداعات الجزائرية المعاصرة النخبوية، وجب استخلاصها من واقع الجماعة بما تشكله كلمة جماعة من مرجع ومفهوم، لأن المفكرين والمبدعين درجات وأمزجة، ولا يجب ترك الهوية رهينة الهوى والمزاج والطبقية؛ فالهوية التي تولد في قفص الصورة ستعتقد دوما أن الطيران جريمة؟.

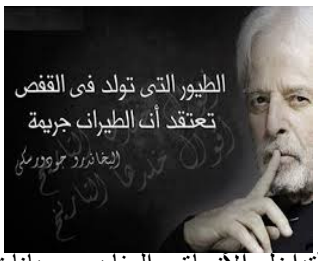

الإحالات

(1) عبد الله إبراهيم، الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة(تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة)، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط1، 1999، ص95.

(2) جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحداثة في الأدب–الأصول والمرجعية، دار الفكر، سوريا، ط1، 2005، ص429

(3) جمال شحيد ووليد قصاب، خطاب الحداثة، ص429.

(4) محمد محمود شاويش، نحو ثقافة تأصيلية(البيان التأصيلي)، الدار العربية للعلوم، بيروت،، نينوي للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط1،2007، ص32.

(5) محمد حسن البرغثي، الثقافة العربية والعولمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2007، ص 115.

(6) محمد شاويش، نفسه، ص35.

(7)– الميلودي شغموم،المتخيل الهوية(الكرامات أنموذجا)، مجلة بصمات ، جامعة الحسن الثاني المحمدية، دار البيضاء، ع4، 1990،ص25.

(8)– نورمان فاركلوف، تحليل الخطاب(التحليل النصي للخطاب الاجتماعي) ، ترجمة طلال وهبة، مراجعة نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، ديسمبر 2009،، ص297.

(9) ينظر: محمد البرغثي، نفسه، ص116.

(10) رشدي أحمد طعيمة/محمود كامل الناقة، اللغة العربية والتفاهم العالمي–المبادئ والآليات، دار المسيرة، الأردن، ط1،2009، ص59.

(11)ابراهيم سعدي، صورة الأنا والأخر في المجتمع الجزائري، مجلة السين، العدد 15، 2000، ص106.

(12)غريماس و فونتاني، نفسه، ص 116.

(13) نورمان فار كلوف، تحليل الخطاب، ص298.

(14) – فاركلوف، نفسه، ص298.

(15)يصفها الدكتور ابراهيم سعدي بالأنا الدنيا.

(3)– آلان تورين، نقد الحداثة، ترجمة عبد السلام الطويل، مراجعة محمد سبيلا، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2010، ص307

(16)غريماس وفونتاني، نفسه، ص 149.

(17)إبراهيم سعدي، صورة الأنا والأخر، ص108.

(1)– آلان تورين، نفسه، ص304

(4)– آلان تورين، نفسه، ص304

18- فان ديك وآخرون، نظرية الأدب في القرن العشرين -مقال: النص: بنياته ووظائفه (مدخل أولي إلى علم النص)، ترجمة: محمد العمري، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1996، ص73.

(19)ابراهيم سعدي، نفسه، ص110.

(20) -عامر مصباح، الإقناع الاجتماعي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، 2006، ص52.

(3)- صلاح فضل، صور القراءة وأشكال التخيل،دار الكتاب المصري، اللبناني، القاهرة، بيروت، ط1، 2007، ص345.

(21)- بنظر: صلاح فضل، المرجع نفسه، ص345-346.

(22) حسين عبد الحميد رشوان: الثقافة، دراسة في علم الاجتماع، مؤسسة الشباب، الإسكندرية، 2006، ص 05.

23- روبرت شيالديني: التأثير، وقائع الإقناع، ترجمة:سعد جلال، دار الفكر، القاهرة، 1988، ص244.

(24)- بنظر: صلاح فضل، المرجع نفسه، ص 345-346.

(25) شالديني، نفسه، ص87.

(26) -قان ديك وآخرون، نفسه، ص76.

(27)غريماس و فونتاني، المرجع نفسه، ص 25.

(28)- الميلودي شغموم،المتخيل الهوية،ص27.